سارتر كما عرفته

بقلم سيمون دوبوفوار

صدر اخيرا في باريس كتاب هام للمؤلفة الوجودية الكبيرة سيمون دوبوفوار بعنوان « مذكرات فتاة رصينة » وفي هذا الكتاب فصل طالي عبرت فيه الكاتبة عن ارائها بجان بول سارتر حين تعرفت عليه وقبل ان يصبح زوجها .

وننشر « الاداب » فيما يلي هذا الفصل الهام من الكتاب الذي يصدر في الشهر القادم عن دار العلم للملايين مترجما الى اللغة العربية .

حين بشرني سارتر على باب « السوربون » باني نجحت في امتحان « الاغريغاسيون » اضاف يقول : « ابتداء من الان ، ساتعهد امرك بنفسي » . وكان يميل الى الصداقات النسائية . وحين لمحته للمرة الاولى في « السوربون » كان يرتدي قبعة ويتحدث بلهجة حيةمع فتاة طويلة خفيفة كنت اجدها قبيحة جدا ، وسرعان ما تخلى عنها ، وارتبط بفتاة اخرى اجمل منها . ولكنها كانت توقعه في الارتباك ، فما لبث ان اختصم معها. وحين حدثه « هيربو » عني ، ابدى رغبته في معرفتي . وها هو ذا الان مسرور جدا بان يتمكن من الاستئثار بي. اما انا ، فيخيل الي الان ان جميع الاوقات التي لم اقضها معه كانت اوقاتا ضائعة . وفي الايام الخمسة عشر التي استغرقها الاستعداد للامتحان الشفهي لم نفترق الا للنوم. وكنا نقصد السوربون لنتقدم الامتحان ونستمع الى دروس زملائنا . وكنا نخرج مع « نيزان » وزوجته ، ونشرب الخمر في « بالزار » مع « ارون » و « بولينزر » الذي كان قد تسجل في الحزب الشيوعي . وكنا غالبا ما نتنزه معا . وكان سارتر يشترى لي ، عند ارصفة السين ،الكتب التي كان يفضلها ، ويصحبني مساء لمشاهدة افلام « الكوبوي » التي كنت احبها . ونجلس على ارصفة المقاهي لنتحدث ساعات طويلة .

وكان « هيربو » قد وصفه لي بقوله « انه لا ينقطع عن التفكير » ولكن هذا لم يكن يعني انه يفرز في كل لحظة اقوالا ونظريات . فقد كان يكره التحذلق كرها شديدا ، ولكن ذهنه كان متيقظا ابدا . كان يجهل الخدر والنعاس والفرار والهدنة والحذر والاحترام . وكان يهتم لكل شيء ولا يعتبر اي شيء مبتوتا بامره . وكان اذا ما واجه شيئا ينظر اليه بصراحة بدلا من ان يتجنبه لصالح خرافة او كلمة او انفعال او فكرة مسبقة ، ولا يتركه قبل ان يستوفي اسبابه ومسبباته ومختلف معانيه . ولم يكن يتساءل عما كان يجب التفكير به ، او ما كان التفكير به نافذا او ذكيا ، وانما كان يهمه ما كان يفكر به في الواقع. وكان يثير دائما اهتمام الاشخاص الذين لم يكونوا ينفرون من الجدة . لانه لم يكن يقع في « الطابعية » لعدم تكلفه الابتكار . وكان ذهنه العنيد الساذج يلتقط الاشياء في ذروة حيويتها وتدفقها . وما كان اضيق عالمي الصغير ازاء هذه الدنيا الغنية ! ولقد استشعرت مثل هذه المذلة ، فيما بعد ، حين رايت بعض المجانين الذين كانوا يبحثون في برعم زهرة عالما معقدا من المؤامرات المظلمة !

وكنا نتحدث عن اشياء كثيرة ، وخصوصا عن موضوع كان اكثر ما يثير اهتمامي : انا نفسي . لقد كان الاخرون ، حين يحاولون شرحي ، يلحقونني بعالمهم . ومن اجل هذا كانوا يغيظونني . اما سارتر فقد كان يحاول على العكس ان يموضعني في نظامي بالذات . فكان يفهمني على ضوء قيمي ومشاريعي . وقد استمع الي بغير حماسة حين رويت له قصتي مع « جاك » . لقد كان عسيرا على امرأة ربيت على شاكلتي ان تتجنب الزواج : ولكن سارتر لم يكن يرى في الزواج شيئا عظيما . ومهما يكن من امر ، فقد كان علي ان احفظ في نفسي بكل ما كان موضع الاحترام في نفسي : حبي للحرية وللحياة وفضولي وارادة الكتابة . وهو لم يكتف بتشجيعي في هذا المشروع فحسب ، بل اقترح ان يساعدني فيه . وكان يكبرني بعامين — افاد منهما كثيرا — فكان اعمق علما مني بكل شيء . ولكن تفوقه الحقيقي الذي كان يبرز لعيني انما كان يكمن في هذه الحساسية الهادئة المرنة التي كانت تدفعه نحو تلك الكتب التي كان ينوي تاليفها . لقد كنت احسبني شاذة

لاني لم أكن اتصور أن اعيش من غير ان اكتب . اما هو فلا يعيش الا ليكتب .

وبكل تأكيد ، لم يكن معولا على أن يعيش حياة مكتب ، فقد كان يكره الروتين والتدرج والاعمال والبيوت والحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة . وهو لا يكاد يهضم فكرة ان تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون ابدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا . لقد كان يحلم في ذلك العهد الرومانتيكي وفي اعوامه الثلاثة والعشرين بالرحلات الكبيرة : فيؤاخي الحمالين في مرفأ القسطنطينية ، ويثمل مع الناس في المقاهي الرخيصة ، ويطوف حول العالم فلا يلقى من يحافظ معه على سره . انه لن يزرع جذوره في اي ارض ، ولن يربك نفسه بأي شيء يمتلكه : وليس ذلك لكي يظل على استعداد ، من غير جدوى ، بل من أجل ان يظل شاهدا على كل شيء . ان جميع تجاربه يجب ان تفيد كتبه ، وقد كان يبعد بلا هوادة كل تجربة قد تنقص من قيمة هذه الكتب . وقد تناقشنا هنا طويلا . فقد كنت معجبة ، نظريا على الاقل ، بخرق القوانين الموضوعة والحيوات الخطرة والبشر الضائعين والاسراف في شرب الكحول وتناول المخدرات وتعاطي الحب . وكان سارتر يذهب الى ان كل اسراف هو عمل مجرم حين يكون للانسان شيء يقوله . وقد كان الاثر الفني، الاثر الادبي غاية مطلقة في نظره ، وكان هذا الاثر يحمل في ذاته سبب وجوده ، وسبب وجود خالقه بل وحتى سبب وجود الكون كله ، ولو لم يقل هذه العبارة الاخيرة ، وان كنت اظن انه مقتنع بها . وكانت المجادلات الميتافيزيقية تدعوه الى هز كتفيه استخفافا . وكان يهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية ، ولكن عمله هو كان ان يكتب ، وكل شيء آخر يأتي في الدرجة الثانية . والحق انه كان في تلك الفترة فوضويا اكثر منه ثوريا . وكان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئا محتقرا ، ولكنه لم يكن يحتقر ان يحتقره . وكان ما يدعوه « جمالية المعارضة » يلائم كل الملاءمة حياة البلهاء والقذرين ، بل يوجبها : فلو لم يكن هناك ما يحتاج الى المكافحة ما كان الادب شيئا عظيما .

وقد وجدت صلة نسب قوية بين موقفه وموقفي . فانه لم يكن في مطامحه اي تكلف للظهور ، وانما كان يبحث عن السعادة في الادب . لقد كانت الكتب تدخل في هذا العالم العارض الى حد يرثى له ضرورة تعود فتتدفق على مؤلفها، فينبغي له ان يقول بعض الاشياء ، واذ ذاك يصبح مبررا كل التبرير . وكان على قدر كاف من الصبا ليتأثر بشأن مصيره حين كان يسمع نغم « ساكسفون » بعد ان يكون قد شرب ثلاثة اقداح من المارتيني . ولكنه كان يقبل ان يغفل اسمه لو لزم الامر : المهم ان تنتصر افكاره . لا ان تنتصر اعماله الخاصة . ولم يكن قط ليقول لنفسه انه كان « احدا » وان له « قيمة » ، بخلاف ما كان يحدث لي . ولكنه كان يعتقد ان حقائق هامة قد انكشفت له، وان مهمته ان يفرضها في العالم . وقد اطلعني على مذكرات ومحادثات . وحتى بعض الفروض المدرسية ، التي كان يؤكد فيها بعناد مجموعة من الافكار كان انسجامها وجدتها يدهشان اصدقاءه . وكان قد عرض هذه الافكار بصورة منظمة بمناسبة تحقيق قامت به مجلة «لينوفيل ليتيرير» ، فبرزت منها فلسفة برمتها لم تكن لها اية علاقة بتلك التي كانوا يدرسوننا اياها في السوربون :

« انه لاكبر تناقض في الفكر الا يستطيع الانسان الذي تتلخص مهمته في ان يخلق الضروري ، ان يرتفع هو نفسه الى مستوى الكائن ، شأنه في ذلك شأن العرافين الذين يتنبأون بالمستقبل لسواهم ، لا لانفسهم . ومن اجل هذا ارى في اعماق الكائن الانساني ، كما في اعماق الطبيعة ، الحزن والضجر . وليس مرد ذلك أن الانسان لا يفكر بنفسه ككائن . فالواقع انه يبذل في ذلك قصارى جهده . ومن هنا منشأ فكرتي « الخير » و « الشر » فكرتي الانسان المفكر بالانسان . وانهما لفكرتان عابثتان . وعابثة ايضا هي فكرة الحتمية التي تحاول محاولة تبعث على الفضول ان تحقق تركيب الوجود والكائن . اننا احرار الى اي حد تريده ... ولكننا مع ذلك عاجزون . اما ما يبقى بعد ذلك، من ارادة القدرة والعمل والحياة فليس الا ايديولوجيات عابثة . فليس هناك في اي مكان ارادة القدرة ، لان كل شيء اضعف مما ينبغي ، وجميع الاشياء تميل الى الموت . والمغامرة هي على الاخص خدعة ،اقصد ذلك الايمان بمصادفات تتحد بالضرورة . ان المغامر انسان حتمي غير منطقي يفرض في نفسه أنه حر . »

وينهي سارتر آراءه مقارنا جيله بالجيل الذي سبقه : « اننا اكثر شقاء ولكننا اجدر بالعطف والحب . »

وقد اضحكتني هذه العبارة الاخيرة . ولكني ادركت وانا اتحدث الى سارتر غنى ما كان يسميه « نظرية العرض » التي كانت تحوي بذور آرائه عن الكائن والوجود والضرورة والحرية . وأصبح بديهيا عندي انه سيكتب يوما كتابا فلسفيا ذا شأن . غير انه لم يكن يعتبر مهمته يسيرة ، لانه لم يكن ينوي تأليف كتاب نظري وفق الاصول التقليدية . لقد كان يحب سبينوزا وستاندال على قدر المساواة ويرفض فصل الفلسفة عن الادب . ولم يكن العرض في نظره فكرة مجردة ، بل كان بعدا حقيقيا من ابعاد العالم : فمن الواجب اللجوء الى جميع مصادر الفن ليشعر القلب الانساني بهذا « الضعف » الذي كان يلحظه في الانسان والاشياء . ولقد كانت هذه المحاولة في ذلك العهد شاذة جدا ، اذ كان من المستحيل استلهام اي طراز او اي نموذج . وبقدر ما ادهشني فكر سارتر بنضجه ، آذاني شذوذ المحاولات التي كان يعبر بها عنه ، وكان يلجأ الى الخرافة والاسطورة ليقدم

فكرته بحقيقتها الفريدة . ولم يكن يأخذه القلق لذلك ، فان اي نجاح لم يكن على اية حال كافيا ليكون اساسا لثقته في المستقبل . كان يعرف ما الذي يريد أن يعمله ، وكانت الحياة أمامه ، وسوف ينتهي به الامر الى القيام به . ولم اكن اشك في ذلك قط : لقد كانت صحته ومزاجه الرضي يصمدان امام جميع المحن . ولا ريب في ان يقينه كان يغطي عزما جذريا لا بد ان يؤتي ثماره ذات يوم بطريقة ما .

كانت هذه هي المرة الاولى التي اشعر فيها بان انسانا يستولي علي فكريا . وقد كنت أقيس نفسي بسارتر كل يوم ، فأجد اني لا وزن لي ازاءه في المناقشات . وقد عرضت له ذات صباح في حديقة اللكسمبورغ ، بالقرب من نبع « مديسيس » هذه الاخلاقية المتعددة التي صنعتها لنفسي لابرر الاشخاص الذين كنت احبهم ولكني لم اكن اريد ان أشبههم ، فاذا هو يحطمها شر تحطيم . وقد كنت حريصة على هذه النظرية لانها كانت تتيح لي ان اتخذ قلبي حكما للخير وللشر . وقد جادلته وانا اتخبط طوال ثلاث ساعات ، وكان علي بعد ذلك ان اعترف بهزيمتي ، ثم اني لاحظت في اثناء النقاش ان كثيرا من آرائي لم تكن تعتمد الا الا على نزعات متغرضة او على تضليل او على عناد ، وان حججي كانت عرجاء ، وان افكاري كانت مضطربة . وقد سجلت في مذكراتي « لست بعد على يقين مما افكر به ، بل لست على يقين أن كنت افكر حقا ! » واصبحت اشد ميلا لان أتعلم مني لان ابرز . على انه كان حادثا جديا ، بعد تلك السنوات من الوحدة القاتلة ، ان اكتشف اني لم اكن « الفريدة » ولا « الاولى » : وانما كنت واحدة بين الاخريات وهي فجأة غير واثقة من قدراتها الحقيقية .

بيد ان همتي لم تثبط . صحيح ان المستقبل بدا لي فجاة أشق مما كنت أتصور ، ولكنه كان كذلك اوفر واقعية واكثر ضمانا . فقد رأيت حقلا محددا ينفتح امامي بمشكلاته ومهماته ومواده وآلاته ووسائل مقاومته ويحل محل امكانيات لا شكل لها . وكففت عن ان اتساءل : ماذا أفعل ؟ كان امامي ان افعل كل شيء ، كل ما تمنيت في الماضي ان افعله : ان أكافح الخطأ وان اجد الحقيقة واقولها واضيء بها الدنيا ، بل وقد اساعد على تغييرها . وكنت بحاجة الى الوقت والجهد لافي ولو جزءا من الوعود التي قطعتها على نفسي : ولكن ذلك لم يكن ليرعبني . فلئن كنت لم اربح شيئا ، فان كل شيء يظل مع ذلك ممكنا .

ثم ان حظا كبيرا يوهب الان لي : انني لم اكن وحدي فجأة تجاه المستقبل . وقد كان الرجال الذين عرفتهم حتى الآن ، وتعلقت بهم ــ كجاك وهيربو ــ من غير نوعي : متحللين غير مستقرين وكان فدرا مشؤوما يلاحقهم ، وكان من المستحيل ان اتعاطى معهم دون تحفظ . اما سارتر فكان يستجيب أتم الاستجابة لرغبات اعوامي الخمسة عشر : كان الانسان الصنو الذي أجد فيه جميع رغباتي وقد بلغت حالة التوهج . وسوف اتمكن معه من ان اقاسمه كل شيء دائما .

وحين تركت سارتر في مطلع شهر آب ، كنت اعلم انه لن يخرج من حياتي بعد ابدا .

سيمون دو بوفوار

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

- **ماركسية القرن العشرين** ترجمة نزيه الحكيم
- **منعطف الاشتراكية الكبير** ترجمة ذوقان قرقوط
- **البديل** ترجمة جورج طرابيشي
- **مشروع الامل**

صدر حديثا